CC BY

College of Basic Education Research Journal

www.berj.mosuljournals.com

Creating Meaning for Life , To be Remembered After Death - Reading Examples Concerning Pre-Islamic Poetry

Hassan Saleh Sultan

Article Information

Article history:

Received: March 25.2025

Reviewer: May 26.2025

Accepted: May 26.2025

Key words :

Correspondence:

Abstract

Pre-Islamic poet's awareness of his short life made him seek to create meaning for it through action and achievement, without taking into account prevailing values, whether economic or social. His achievements were represented poetically through plunder of pleasures and excess in practicing ritual of generosity, risk-taking, and war, transcending voice of critic who represents society surrounding poet. Poet adopted argumentative style, presenting cause and reason to give his vision credibility to remove doubt, emphasizing that there is no point in holding back and being stingy as long as man is doomed to harsh condition of annihilation.

ISSN: 1992 – 7452

خلق معنى للحياة فعالية بوجه الموت– قراءة في نماذج من الشعر الجاهلي

حسن صالح سلطان

المستخلص

إن إدراك الشاعر الجاهلي لمحدودية حياته جعله يسعى خلق معنى للحياة عن طريق الفعل والانجاز غير مراعٍ للقيم السائدة سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية، وتمثلت انجازاته شعريا عن طريق نهب الملذات والإفراط ممارسة شعيرة الكرم والمجازفة والحرب متجاوزاً صوت العاذل الذي يمثل البنية المحيطة بالشاعر، وقد أفرغ الشاعر رؤيته بأسلوب حجاجي عارضاً المسبب والسبب ليعطي رؤيته مصداقية لإيطالها الشك مؤكداً أن لا جدوى من الأحِجام والتقتير في الانفاق طالما أن الانسان محكوم بشرط الفناء القاسي.

المقدمة

على الرغم من أن معرفة الانسان لحتمية موته معرفة قبلية سابقة لأي تجربة واستقراء إلا إن الموت شاغلاً له في فجر البشرية الأول، ولكن ما أدرك أن الزمن يسير بخط مستقيم، وأن حياة الانسان مساحتها محدودة (الولادة / الموت) فقد أصبح الموت واقعة مأساوية أشعر الإنسان بشرط الحتمية القاسي، وقد انعكس هذا الاحساس على المنجز الأدبي.

وقارئ الشعر الجاهلي يجد أن محدودية الحياة وحتمية الموت فرضتا حضورهما على المنجز الشعري الجاهلي، وإن تباينت المشاعر إتجاه هذه الحتمية بين إحساس بالعدم واليأس، وبين الفعل الذي يحقق للذات وجودها الأصيل، ويعطي للحياة معنى على وفق متطور سارتر.

وقد حاولنا في هذه المقاربة دراسة هذا الجانب إذ قدمت خطة البحث على توطئة تحدثنا فيها عن الفعل الانساني كردة فعل على محدودية الحياة منذ ملحمة كلكامش، ثم عرفنا بمصطلح معنى الحياة في الفلسفة الوجودية، وبعدها فصلنا القول في الأفعال التي رأى فيها الشعراء إعطاء معنى لحياتهم.

وقد انحصرت تلك الأفعال بثلاثة مجالات هي نهب الملذات والكرم والمجازفة، إذ فصلنا الحديث عن رؤية الشعراء التي عبروا فيها عن موقفهم من الموت وإعطاء معنى لحياتهم، ثم قدمنا خاتمة لخصا فيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

توطئة

إن الباحث في الفلسفات الحديثة ذات الطابع العدمي التي تغيب كل شعور ميتافيزيقي نجد أنها اتخذت مسارين : مسار تشاؤمي رائده شوبنهاور الذي رأى أن لا جدوى من نازع الإرادة العمياء، فالمتأمل فيها يجد أن الانجاز الانساني عبث لا طائل منه لانه يفتقر إلى الديمومة. والتأمل في الإرادة يجعل الانسان يرى أن الحياه سفر مأساوي ينتهي بالموت [١] .

أما المسار الثاني فقد ذهب أصحابه إلى الدعوة لخلق معنى للحياة طالما أن نهايتها الموت، وقد اختلف هؤلاء الفلاسفة (نيتشه وسارتر والبير كامو) في النمط الذي تسلكه الذات الانسانية لاجل خلق معنى لحياتها.

فنيتشه قدم فكرة "**القوة** " فالذات الانسانية– على وفق منظوره– يجب عليها أن تؤمن بقوتها الداخلية متجاوزة كل التراكمات الثقافية التي منحت القديسين سمة رفيعة يجب محاكاتها والاحتذاء بها[٢] .

أما "**سارتر**" فقد رأى أن الحرية في الاختيار هي السمة التي يجب أن يكون عليها الانسان ملغياً ما كان شائعا حول (الحتمية)، فالذات هي التي تختار ما تكونه في الحياة علماً أن الاختيار اختيار فردي لا يخضع لضوابط خارجية مقدمة سلفا، وهذا الاختيار يعطي للذات الانسانية معنى للحياة[٣] .

أما "**كامو**" فقد رأى أن التمرد وسيلة تمنح الانسان وجوده الأصيل وتعطى لحياته معنى، فالتمرد عنده (نُسك) وإن كان أعمى[٤] .

ومصطلح "**معنى الحياة**"، وإن كان حديثاً، فان البشرية في فجرها الاول قدمت مقولات تحمل محتوى هذا المصطلح، وهذا ما نجده في خطاب النادلة في "**ملحمة كلكامش**" التي عبرت فيه عن حتمية الموت ولا جدوى من السعي إلى الخلود لانه سمة احتفظت بها الآلهة لنفسها وما على الانسان إلا أن يمتع نفسه ويحيي ذكره [٥] .

---

[١] العالم إرادة وتمثلاً : لمشوبنهاور ، آفاق الفلسفة ، مؤسسة هنداويpooks http//www.hindaei.org

[٢] إرادة القوة : فريد يريك نيتشه ، ترجمة: محمد ناجي : ٢٦٣.

[٣] معنى الحياة والمأزق الوجودي: استقراء نقدي لأعمال فلاسفة غربين ,مجلة الاستغرابhttps//istighrab.iicss,iq

[٤] كامو والتمرد : روبير دولوبيه، ترجمة: سهيل ادريس , ٩٢.

[٥] ملحمة كلكامش ، ترجمة : طه باقر : ٧٩.

وما يهملنا مما تقدم هو فكرة "**سارتر**" عن معنى الحياة، إذ نجد لها صدى واسعا في المنجز الشعري الجاهلي، وإن اختلفت رؤيتهم لمعنى الحياة من شاعر لآخر فمنهم من ذهب إلى نهب اللذات، ومنهم من سعى إلى خلود الذكر عبر انجاز فردي ، ومنهم من عد المجازفة انجازاً انسانيا يمكنه من خلق معنى لحياة نهايتها الموت، يصاحبها فقدان العقيدة المطمئنة التي تعد بحياة أخرى .

أولاً: نهب الملذات

إن السعي لنيل الملذات شاغل انساني منذ فجر البشرية وحتى يومنا هذا، ولكن هذا الانشغال والسعي لنوالها يختلف من شخص لآخر. ولما كان الانسان الجاهلي يعي حتمية موته فإن قسما من الشعراء رأوا أن نيل الملذات هو الشئ الوحيد الذي يعطي للحياة معنى ويمد الذات الإنسانية للاستمرار بالحياة؛ فهذا أمرؤ القيس يقدم هذه الفكرة وهو تحت ضغط الصيرورة والتغير، إذ يقول[٦] :

وان أمـــس مكروبـــاً فيـــا ربُ شَـهِدْتُ عَلـى أقَب رَخْـوِ اللَّبَانِ

تَمَتّـعْ مِـنَ الـدّنْيَا فَإنّـكَ فَـاني مِـنَ النَّشَـوَاتِ وَالنّسَـاءِ الحِسَـانِ

فبعد حركة استذكارية يجد الشاعر أن ما انجزه أصبح ذكريات تعمق اسى الحاضر وكأن الشاعر لم يقم بها, لذا فانه يرى أن لا فائدة من القيم ولا المنجزات ذات المردود الاجتماعي، والشيء الوحيد الذي يجعل للحياة معنى هو نيل المتعة لا غير بوصفها إمكانية وحيدة تحقق، لذا وجودها الأصيل، وقد قصر متعته بمجالين : الخمر والمرأة متجاوزاً كل فعل أو انجاز لا يحمل النزعة الفردية الخاصة , فوعي الشاعر لحتمية موته –إبان نطقه للنص– جعله يهمل المعطيات القيمية التي أقرتها السنن الاجتماعية آنذاك كالكرم والدفاع عن القبيلة... الخ , فعندما "**يسود الوعي يصبح سلم القيم بلا فائدة**" [٧] .

---

[٦] ديوان امرئ القيس , ترجمة : أبو الفضل ابراهيم : ١٩.

[٧] العبث: البيركامو , ترجمة: بسام نصار: ١٩.

ويماثل امرأ القيس في توجهه هذا طرفة بن العبد الذي دخل في حلقة صراعية مع القبيلة جراء ممارسته اللذات وتبديد أمواله[٨] :

مـــا زال تشـــرابي الخمـــور وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلـــى أن تحـــامتني العشـــيرة وأفـردت إفـراد البعيـر المعبـد

لقد غربته القبيلة ونفرت منه جراء انشغاله بالملذات جسد تغريبه عبر صورة تشبهية اسنتقاها من البيئة الرعوية (وأفردت إفراد البعير المعبد) ، لقد سلبته القبيلة انسانيته ونقلته إلى مستوى حيواني ، وهو مع هذا لا يرتدع عن سلوكه، إذ يرى أن ما يمارسه مشروعاً امام شرط فالغناء القاسى معضداً رؤيته من خلال حتمية الموت، إذ يقدم خطابه للآخرين بأسلوب حجاجي مؤكداً سلامة حجته وصدق منطقه[٩] .

ألا أيهـــذا اللائمـــي أحضـــر وأن أشـهد اللـذات، هـل أنـت

فـإن كنـت لا تسـتطع دفـع فدعني أبادرها بما ملكت يدي

إن الشاعر يساوي بل يقدم اللذة الفردية على المشاركة الاجتماعية ، فالقتال مع القبيلة (أحضر الوغى) لا يحقق له الخلود وممارسة اللذة هي كذلك ، والآخر اللائم لا يتمكن من دفع المنية عن الشاعر، ومن هنا ، نجد الشاعر يخاطبه بلغة أمرية متعالية (فدعني أبادرها) ، إن طرفة يريد أن ينال أكبر قدر من الملذات قبل موته فهو في سباق مع المنية مع علمه أن موته أمر حتمي لا مفر منه، ومع هذا فالشاعر ممسك بالحياة لوجود ممكنات ثلاث[١٠] :

وَلَـوْلَا ثَـلَاثٌ هُـنّ مـن عيشَـة وَجَدّكَ لم أحفِلْ متى قامَ عُوّدي

فَمِـنْهُنَّ سَـبْقِي العَـاذِلاتِ بشَـرْبَةٍ كُميتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزْبِدِ

وَكَـــرّي إذا نـــادى الْمُضـــافُ كَسِـيدِ الغَضَـا نَبَّهْتَـهُ الْمُتَـوَرِّدِ

وتقصـيرُ يـومِ الـدَّجنِ والـدَّجنُ ببَهْكَنَـةٍ تَحْـتَ الطِّـرَافِ الْمُعَمَّـدِ

---

[٨] ديوان طرفة بن العبد , ترجمة: مهدي محمد ناصر: ٢٥.
[٩] المصدر نفسه: ٢٥.
[١٠] المصدر نفسه: ٢٦.

إن عالم الرغبات الذي يشد الشاعر للحياه ويجعله متمسكاً بها جاء ردة فعل على شبح الاغتراب والزوال الذي هيمن على رؤيته ، فالوجود البشري وجود زماني محدود ، وليس أمام الانسان سوى أنتهاب الملذات وتحقيق الرغبات الممكنة . فكان انفتاح طرقة على ممكنات ثلاث يمتزج فيها الحسي (الخمرة والجنس) بالقيمي إنقاذ الملهوف وان كان فعل الانقاذ يتم عبر نشاط فيزياوي مشترك مع فعل اللذه، ولكن الانفتاح الطرفي على عالم الممكنات تتحكم فيه شروط بيئية واجتماعية, فنجدة الملهوف ليست امكانية قائمة دائما ، وانما تظهر وتغيب حسب مفاهيم المؤسسة الاجتماعية وتحولاتها، وممارسة للجنس تفقد عنده جاذبيتها خارج إطار الظرف البيئي الماطر (الدجن) كون ممارستها خارج هذا الظرف لا تسهم في احساس الشاعر بوجوده المتكامل[١١] .

وإذ كان امرؤ القيس وطرفة يصرحان لسعيهما للذة, فأننا نجد أن الممزق العبدي يدعو إلى انفاق المال دون تصريح عن المجال الذي ينفق فيه فهو يلمح إلى اللذة إلماحاً جراء ايمانه بحتمية الموت, اذ يقول[١٢] :

هَل لِلفَتى مِن بَناتِ الدَّهرِ مِن واقِ ... أَم هَل لَهُ مِن حِمَامِ المَوتِ مِن

قَد رَجَّلُوني وَما رُجِّلتُ مِن شَعَثٍ ... وَأَلبَسُوني ثِياباً غَيرَ أَخلاقِ

ورَفَعوني وَقالوا أَيُّما رَجُلٍ ... وَأَدرَجوني كَأَنّي طَيُّ مِخراقِ

وَأَرسَلوا فِتيَةً مِن خَيرِهِم حَسَباً ... لِيُسنِدوا في ضَريحِ التُّربِ أَطبَاقي

هَوِّن عَلَيكَ وَلا تَولَع بِإِشفاق ... فَإِنَّما مالُنا لِلوارِثِ الباقي

كَأَنَّني قَد رَماني الدَّهرُ عَن عرض ... بِنافِذاتٍ بِلا ريشٍ وَأَفواقِ

فعبر اسلوب استفهامي خرج عن دلالته الحقيقة إلى دلالة مجازية هي النفي (ما لفتى؟) يؤكد الشاعر أن لا نجاة من المصائب التي يحدثها الدهر على حد قوله، فضلا عن أنه يؤكد حتمية الموت فالمصيبة أية كانت والموت هما كل واحد لا يردان، عضّد هذا حضور حرف العطف (أم) إلى جانب

[١١] رؤى نقدية الشعر الجاهلي بين الشكل والمضمون: ٢٢.
[١٢] المفضليات , المفضل الضبي, ترجمة : احمد محمد شاكر, وعبد السلام هارون:٣٠٠.

تماثل شطري البيت تركيبياً ، فالتماثل التركيبي في الجمل يوحد الدلالة[١٣] بينهما والشاعر إذ يعي هذه الحقيقة فإنه يبدو أشبه بالمستغيث المتفجع أمام المصائب و امام قدر الموت المحتوم.

فلفظة (ما) مصدر للفعل (حُمَّ) أي قدر , وعند هذه النقطة ينتقل الشاعر لتصوره عما يفعل به قبل الدفن أنه قدم تصوره بإسلوب سردي هيمنت عليه الأفعال الماضية وكأنه يسرد ما جرى لميت آخر قبل الدفن.

ولرب سائل يسأل كيف يتحدث عن هذا الجانب علماً انه لم يتحقق, أبان نطق النص والجواب على هذا ان حادثة موته واقعة لامحالة وهي متحققة لذا عبر عنها باسلوب ماضي هذا من جانب، ومن جانب آخر صحيح أن الموت حدث غير قابل للتجريب , ولكن موت الأخرين ومراسم دفنهم تنسحب إلى الداخل فيصبح موت الآخر موتي انا[١٤].

وعلى اية حال فان الشاعر يهزأ ضمنياً من مراسم دفنه وان كان الدافنون يعتنون به كون الشاعر يرى انه اصبح كاللعبة بيد الاخرين يفعلون بها ما يشاؤون , ففعل الترجيل والالباس والرفع قام به الاخرون دون أي حراكٍ من قبل الشاعر يعضد ما ذهبنا اليه البناء التشبيهي (كأني طي مخراق) , فالمخراق لعبة يمارسها الصبيان وهذا ما يؤرق الشاعر, وعند هذه النقطة ينقطع السرد ليتوجه الشاعر مخاطباً ذاته عبر أسلوب تجريدي بان عليها ان تتلف ما تملك من أجل المتعة ولا داعي للبخل (تلحف باشفافي) لأن ما يترك الانسان من ماله يسئول للوارث، وهنا تبرز حالة التضاد بين الشاعر والاخرين فهو لايريد أن ينتفع أحد مما ترك فمعنى الحياة لديه هو ان تمتع الذات نفسها دون أي اهتمام بالاخر.

أما ذو الاصبع العدواني فانه على الرغم من مشيبه لايزال متمسكاً بالحياة؛ لانها توفر له ممكنات يحقق عبر إنجازها وجوده الأصيل ويعطي معنى لحياته , بقوله:[١٥]

لا يبعــدن عصــر الشــباب لذاتـــه ونباتـــه النضـــر

والمرشـــفات مـــن الخـــدود مـاض الغمـام صـواحب القطـر

وطــراد خيــل مثلهــا التقتــا لحفيظـــةٍ ومقاعـــد الخمـــر

---

[١٣] في سيمياء شعرنا القديم - دراسة نظرية وتطبيقية, د.محمد مفتاح: ١٤٣.

[١٤] مقالات في الشعر الجاهلي, يوسف اليوسف:٣٤٩.

[١٥] ديوان ذي الاصبع العدواني , جمع وتحقيق عبدالوهاب محمد علي العدواني , ومحمد نايف الدليمي :٣٨.

لــولا أولئــك مــا حفلــت متــى غولبــت فــي حــرج إلــى قبــر

يستهل الشاعر نصه بأسلوب دعائي (لا يبعدن عصر الشباب) وهذا يعني ان الشاعر قد زايل عصر الشباب فصيغة "**لايبعد**" صيغة طقوسية يعبر بها عن الفقد ليبدأ الشاعر بعد هذه الصيغة بسرد الإمكانيات التي يوفرها عصر الشباب وهي إمكانات حققها الشاعر فيما مضى وتتمثل هذه الإمكانات بثلاث أولها: مقاربة المرأة التي شبه خدها بالغمام الماطر, وهذا التشبيه ليس عارياً من الدلالة فمقاربته للمرأة لاتعني أشباع رغبة ولذة بقدر ما هي فعالية تحافظ على النوع وتحقق الخصب هذا إذا ما تذكرنا أن الماء يمثل عنصراً أساسياً لإدامة الحياة.

أما الإمكانية الثانية فتتمثل في ممارسته للقتال إذ أن ممارسة القتال في عصره تحقق غايتين أولها وجودية كونه الفعل القتالي يوفر للذات والجماعة الحفاظ على النفس لان الصراع في أغلبة في الجزيرة العربية في الفترة التي عاشها الشاعر كان صراع تصفية وجودية ، أما الغاية الثانية فإن الفروسية تحقق مكانة اجتماعية مرموقة عند القبيلة آنذاك والإمكانية الثالثة تمتزج فيها اللذة الفردية مع المردود الاجتماعي فصحيح أن معاقرة الخمر فعل فردي ولكن يتحول إلى طقس اجتماعي عبر مشاركة الآخرين له (مجالس الخمر)... وهذه الإمكانيات الثلاثة هي التي تعطى للحياة معنى على وفق منظوره لاسيما وأنها تظهر الشاعر ذات فاعلة تمتلك وجوداً أصيلاً ,فالوجود الحقيقي يتمثل بالفعل " **فأنا أفعل إذن أنا موجود**"[١٦] إن تمسك الشاعر بالحياة كان بسبب هذه الإمكانيات فلولا وجودها لما أسف على الحياة.

لــولا أولئــك مــا حفلــت متــى غولبت في حرج إلى القبر

علما أن فعل الموت حدث حتمي لا قدرة على الذات للخلاص منه يؤكد هذا الفعل المبني للمجهول (غولبت).

[١٦] القلق الوجودي الثمن الباهض للحرية ، جوى سالم, الأخبار ٥-١٠-٢٠١٨ wikia.wikipedia/

ثانياً : الكرم

إذا كانت شعيرة الكرم وممارستها فعلاً ذا مردود اجتماعي أشادت به المؤسسة الثقافية في العصر الجاهلي فأننا نجد بعض الشعراء يجد في ممارسة هذه الشعيرة يعطي معنى للحياة عن طريق خلود ذكره نجد هذا في قول حاتم الطائي[١٧] :

أَمــاوِيُّ إِنَّ المــالَ غــادٍ وَرائــحٌ ... وَيَبقى مِنَ المالِ الأَحاديثُ وَالذِكرُ

أَمــاوِيُّ مــا يُغنــي الثَــراءُ عَــنِ ... إِذا حَشــرَجَت نَفــسٌ وَضــاقَ بِهــا

إِذا أَنــا دَلّانــي الَّــذينَ أُحِــبُّهُم ... لِمَلحــودَةٍ زُلــجٌ جَوانِبُهــا غُبــرُ

وَراحــوا عِجــالاً يَنفُضــونَ أَكُفَّهُــم ... يَقولــونَ قَــد دَمّــى أَنامِلَنــا الحَفــرُ

أَمــاوِيُّ إِن يُصــبِح صَــدايَ بِقَفــرَةٍ ... مِــنَ الأَرضِ لا مــاءٌ هُنــاكَ وَلا خَمــرُ

تَــري أَنَّ مــا أَهلَكــتُ لَــم يَــكُ ... وَأَنَّ يَــدي مِمّــا بَخِلــتُ بِــهِ صَــفرُ

إن الشاعر يرى أن المال وسيلة لاحياء الذكر يماثل في رؤيته هذه رؤية نادلة الحانة في خطابها لكلكامش والتي ترى أن أحد وسائل الخلود ومنح الحياة معنى هو خلود الذكر – كما أسلفنا – فأستحالة الخلود فيزيائياً يعوض عنه بالخلود معنوياً (الذكر) ليسترسل الشاعر في تقديم رؤيته هذه مدعمة بذكره لحتمية الموت، فالمال لا يمكن أن يمنح الانسان الخلود ، وبهذه الرؤيا فإن الشاعر تجاوز تراكماً ثقافيا عالميا فالأدبيات القديمة تؤكد على أن الانسان في العصور القديمة كان يرى ما ممتلكاته وسيلة تدفع عنه شبح الموت [١٨] ، والشاعر هنا يقارب في رؤيته رؤية طرفة بن العبد في عدم جدوى اقتناء المال ولكن طرفة يقدم اللذة على نازع الكرم على عكس حاتم ثم يستشرف الشاعر ما يقوم به الآخرون بعد موته فهم يقومون بأجراء مراسيم الدفن علماً أن القائمين بهذا الفعل من نفس الشاعر (الذين أحبهم) وفي هذا الماح إلى أن الاخرين لا يحبونه والدليل على هذا عدم تريثهم في دفنه (عجالى) ، فضلاً عن أنهم لا يتأسون ولا يحزنون لموته بل أنهم يشكون من التعب الذي أصابهم جراء عملية الدفن (أدمى أنا ملنا الحفر) لذا يؤكد

[١٧] ديوان حاتم الطاني ، ترجمة: عادل سليمان جمال : ٢٤.
[١٨] الإنسان بين الجوهر والمظهر, إرك فروم ، ترجمة : أسعد زهران : ٨٥.

للمرأة مصداق رؤيته فبعد الموت لا تتوفر للميت أدنى مقومات الحياة (لا ماء) وليس للذة هنا وجود (ولا خمر).

ومن هنا فإن ممارسة شعيرة الكرم ليست ضارة له أما الممتلكات فلا وجود لها بعد الموت اذ تتحول هذه الأموال للوارثين، والملاحظ أن الشاعر قدم رؤيته باسلوب حجاجي مباشر متجاوزاً التلميح معضدها عبر إسلوب التكرار العمودي (اماوي) ، فهذا لا يعنى أن تقديم الشاعر لرؤيته باسلوب مباشر انفاصًا لقيمة النص، ذلك أنه طبيعة الموقف المتضاد بينه وبين المرأة تحتم عليه أن يقدم رؤيته بهذا الشكل فاحياناً يكون الاسلوب المباشر أغنى فينا من اسلوب التلميح كونه يجسد رؤية الشاعر إذ إن سلامة المنطق تؤدي إلى سلامة الحجة.

والملاحظ أن حاتم يؤكد على مصداقية رؤيته معولاً على حدث مستقبلي يتمثل بموته كما يبدو ظاهرياً الا ان رؤية حاتم رؤية آنية، لان حدث الموت الغيري ينسحب على الانا فموت الاخر يعني موتي انا وتظل هذه الرؤية مهيمنة على فكر حاتم اذ نجده في موضع اخر يقول[١٩]:

مَهــــلاً نَــــوارُ أَقِلّـــي اللَـــومَ ... وَلا تَقولي لِشَـيءٍ فاتَ ما فَعَلا

وَلا تَقـولي لِمـالٍ كُنـتُ مُهلِكَـهُ ... مَهــــلاً وَإِن كُنـــتُ أُعطـــي

يَــرى البَخيــلُ سَــبيلَ المــالِ ... إِنَّ الجَوادَ يَرى فـي مالِهِ سُبُلا

فَاِصــدُق حَــديثَكَ إِنَّ المَــرءَ ... مـا كـانَ يَبنـي إِذا مـا نَعشُـهُ

لَيــتَ البَخيــلَ يَــراهُ النــاسُ ... كَمـا يَـراهُم فَـلا يُقـرى إِذا نَـزَلا

فباسلوب التماسي موجها نحو مرأة لتقلل من لومها وعذلها لان ما قام به لا يمكن رده كونه مضى فالماضي حدث اكتملت دلالته ولا يمكن تعديله أو استبداله.

وقد تنوعت أساليب الإلتماس بين اسم المصدر (مهلا) واسلوب النهي (لا تقولي) وإن وهذه الأساليب وإن تباينت بنائياً فانها تحمل دلالة واحدة، وعند هذه النقطة تغيب الأساليب الطلبية ليبدأ الشاعر بافراغ رؤيته باسلوب سردي كاشفاً عن المفارقة بين الضدين (البخيل والجواد) ، فالبخيل يرى أن الهدف من المال هو تكديسه فحين أن الجواد يرى أن المال ويمكن أن ينفق في أكثر من وجه كالذة والكرم .... الخ .

[١٩] ديوان حاتم: ٣٩.

وعلى الرغم من حرص البخيل فإنه لا يكسب من ماله بعد الموت سوى ذم الآخرين له فحين أن المال يعود للوارث، ومن هنا نلمح أن الشاعر لا يريد أن يترك شيئًا يورث وكأنه في تضاد مع وارثيه لذا فإنه يوجب على نفسه أن يجود بما يملك ، ويرى ان خلود الذكر الحسن لايمكن ان يتحقق الا بالانفاق، فالانسان بعد موته لا يجد شيئاً يخلده الا الذكر الحسن تجسد هذا عبر حضور الفعل (يتبع) فلا الخلف يمنح ذاته الخلود وهذه الرؤية مخالفة لمعطيات ثقافية قديمة تذهب إلى ان الانسان يخلد فيزيائياً من خلال أبنائه[٢٠], فالشاعر يأئس من الخلود الفيزيائي ولا سبيل إلى الخلود الا عبر فعل الكرم الذي يحقق له خلوداً معنوياً.

ويوافق النمر بن تولب حاتماً في توجهه, إذ يقول[٢١] :

اعـاذل ان يصـيح أعـاذِلُ أَن يُصـبِح صَـدايَ ... بَعيـداً نَـآني صـاحِبي وَقَريبـي

تَـرَي أَنَّ مـا أَبقَيـتُ لَـم أَكُ رَبَّـهُ ... وَأَنَّ الَّـذي أَمضَـيتُ كـانَ نَصـيبي

وَذي إِبِـلٍ يَحسِـبنها لَـهُ ... أَخي نَصَبٍ في سَقِيّها وَدَؤوب

غَـدَت وَغَـدا رَبٌّ سِـواهُ يَسـوقُها ... وَبَـدَّلَ أَحجـاراً وَحـالَ قَليـب

وَحَثَّـت عَلـى جَمـع وَمَنـع وَنفسُـها ... لَهـا فـي صُـروفِ الـدَهرِ حَـقٌّ

وَكـائِن رَأَينـا مِـن كَـريمٍ مُـرَزَّأٍ ... أَخـي ثِقَـةٍ طَلـقُ اليَـدَينِ وَهـوبِ

إلا أن النمر لايبدأ حديثه عن شعيرة الكرم ، وانما يتحدث عما يكونه بعد موته وإن لم يصرح بهذا ولكن حضور لفظة صدى تحيل إلى هذا المعنى، بعد موت الانسان –كما يعتقد الجاهليون– يخرج طائر صغير من رأسه ويصدح[٢٢] ليبدأ بعدها الشاعر بفراغ رؤيته مؤكداً أن الانسان لا يملك شيئا سوى ما أنفق (أبقيت كان نصيبي) الا أنه لا يحدد في أي المجالات أنفق ماله مؤكداً توجهة من خلال حديثه عن إنسان أنفق عمره في الحفاظ على أمواله ظناً منه أن المال سيبقى ليستمر منشغلاً بنشاطاته الحياتية دون أي حس ميتافيزيقي فانشغاله بما يملك (الإبل) جعله يتناسى أنه كائن معد للموت حتى داهمه فتحول ما يملك إلى وارثيه ولم يحصل في النهاية على أي شيء سوى قبر(وبدل أحجاراً) .

---

[٢٠] الاتهام بالذات, ميشيل فوكو:٨٥.

[٢١] ديوان نمر بن تولب: محمد علي نبيل طرفي: ٤٣-٤٥.

[٢٢] لسان العرب: ابن منظور: مادة (صدي).

إن الميت المتحدث عنه أصغى لنداء نفسه فحرص وجمع متناسيا أن نهايته متحققة عبر حركة الزمن الذي لا يصدق به الظن لأن حركته تقضي على كل الأمال والممتلكات ، إذ إن الانسان والأشياء محكوم عليها بالتلاشي والفناء، وعند هذه النقطة يبدأ الحديث عن شخوص كرام وإن تحدث عنهم الشاعر بصيغة مفرد، لأن لفظة كائن مسبوقة بـ(كم) الخبرية فالكرام كثر وهم وإن كانوا معدمين (مرزأ) فهم ينفقون ودون أي احتياط أو تخوف من الإفلاس, إن المقارنة بين البخيل والكريم جاءت لتؤكد رجاحة الكرم لأن الكريم –على وفق منظوره– يمتع نفسه والآخرين بما يملك.

ثالثاً : الفروسية

في بيئة قائمة على التصاول والتصادم تمنح شرعية للغزو وجد قسم من شعراء العصر الجاهلي في الفروسية وسيلة لتحقيق وجودهم الأصيل ومنح معنى لحياتهم، فعنترة الذي نشا عبداً في بيئة كان العبد فيها سلعة تباع وتشترى وجد في الفروسية والقتال سبيلاً يمنحه الحرية ويخلصه من الرق فهو يقول[٢٣] :

إنــي امـرؤ مـن خيـر عـبس نصـــفي واحمـــي ســـائري

فهو من جهة الأب عبسي أصيل له ، أما من جهة الأم فهو عبد لا قيمة له؛ ولكنه تجاوز هذا الجانب من خلال ممارسته القتال والدفاع عن القبيلة لذا تجده يلهج بالحديث عن الفروسية كونها حققت له مكانة مرموقة في سلم التراتب الاجتماعي، لذا فهو لا يتورع ولا يرتدع فطالما ان الموت واقعة حتمية فلا داعي للتخوف، إذ يقول[٢٤] :

بكـــرت تخـــوفني الحتـــوف أصبحت عن غرض الحتوف

فأجبتهـــا إن المنيـــة منهـــل لابـدّ أن أسـقى بكـأس المنهـل

فـــاقني حيـــاءك لا أبـــا لـــك أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

(٢٣) ديوان عنترة , ترجمة: أبو الفضل ابراهيم.
(٢٤) المصدر نفسه :٥٤.

فباسلوب سردي سابق لزمن النطق يسفه الشاعر توجهات امه داحظاً حججها من خلال حديثه عن حتمية الموت فبما انه انسان فانه هدف للمنية وشرطها المقيت فعبر أسلوب التشبيه البليغ (إن المنية منهل) يؤكد الشاعر انه لا يمتلك اختيارات فالموت هو الاختيار الوحيد وهو ينفتح على هذا الاختيار حتى كأن الموت لديه مصدر للحياه فالمنهل معجمياً يعني مصدر السقي والاستسقاء منه استسقاء حتمي، لذا فهو يرى أن الموت ضرورة كضرورة شرب الماء بالنسبة للإنسان وهذه الرؤية دفعت الشاعر إلى مخاطبة امه بأسلوب تعنيفي (اقني حياءك) كونها لا تعلم أن الموت أمر حتمي وكيفية وقوعة واحدة في نتيجتها فالقتل والموت الطبيعي كلاهما يقضيان على النفس الإنسانية ومن هنا فإن عنترة لا يبالي بالموت وينزع إلى المجازفة لأنه يجد فيها ما يرفعه إلى مكانة مرموقة لدى الطبقة المحيطة به.

واذا كانت المعطيات التاريخية تشير إلى ان عنترة ركب المجازفة واعتنق القتال من اجل تحقيق حريته فان عروة ابن الورد يرى ان معنى الحياة يتحقق عبر الكسب المادي كسباً لا يعني التقشف والبخل بل تحقيق الرفاهية له ولمن حوله ولا يجد سبيلاً إلى غايته الا بالمجازفة والقتال اذ نراه يقول[٢٥] :

أَقِلّي عَلَيَّ اللَومَ يا بِنتَ وَنامي وَإِن لَم تَشتَهي النَومَ
ذَريني وَنَفسي أُمَّ حَسّانَ بِها قَبلَ أَن لا أَملِكَ البَيعَ
أَحاديثَ تَبقى وَالفَتى غَيرُ إِذا هُوَ أَمسى هامَةً فَوقَ صُيَّرِ
تُجاوِبُ أَحجارَ الكِناسِ إِلى كُلِّ مَعروفٍ رَأَتهُ وَمُنكَرِ
ذَريني أُطَوِّف في البِلادِ أُخَلّيكِ أو أُغنيكِ عَن سوءِ
فَإِن فازَ سَهمٌ لِلمَنِيَّةِ لَم أَكُن جَزوعاً وَهَل عَن ذاكَ مِن

يفتتح الشاعر نصه بصيغة أمرية موجهة إلى امرأة (أم منذر) بوصفها لائمة ولا ندري اكانت امرأة حقيقة ام انها متخيلة الانها في كلتا الحالين توصي بعدم المجازفة، فلفظة (منذر) إذا تجاوزنا دلالتها العلمية إلى دلالتها الإشادية فإنها تعنى الانذار –كونها مشتقه من الفعل (أنذر) ولكنه لا يستجيب لندائها ويستعجل منيته فقد قدم رؤيته باسلوب تهيمن عليه لغة الاقتصاد (البيع مشتري) فهو يريد أن يجعل من الحتمي (الموت) إختياراً ولكنه اختيار ليس معدوم الغاية ، فالمجازفة تهدف إلى تغيير وضعه الاقتصادي

[٢٥] ديوان عروة ابن الورد, ترجمة : أسماء أبو بكر محمد:٦٧.

فضلا عن أن الإقدام والشجاعة صفة أكدت عليها الثقافة العربية آنذاك وهو عبر هذه الممارسة يكتسب خلود معنوياً (أحاديث تبقى والفتى غير خالد) فنهايته فيزيائيا هو هامة تنعب فوق أحجار قبره باثة شكواها لكل من هب ودب (معروف رأته ومنكر) والشاعر لم يفصح عن سبب الشكوى، فالهامة كما أسلفنا –تخرج من رأس القتيل وتقول أسقوني لكي يؤخذ بثاره ، وإذا ما تحقق أخذ الثار تكف عن الصياح، ولكن هامة عروة تتمع بصراخ ازلي لا ينتهي مما يدفعنا إلى القول ان صراخها لا ينقطع ابداً.

وأمام حتمية الموت لا يجد الشاعر سبيلاً إلا بالمجازفة لتحقيق مستوى اقتصادى ، إذ إن الغنى على وفق منظوره لا يأتي الا عن طريق المجازفة والغزو ، ولكنها مجازفة غير مضمونة يؤكد هذا حضور (فاز سهم) إذ إن هذه الجملة تحيل إلى فعالية الميسر التي تمثل مغامرة ليس لها طابع يقيني فلربما يفوز أحد بالسهم أو لا يفوز غيره ,إلا أن عروة لا يمارس المسير مع بني جنسه بل يمارسها مع المنية ، ومع هذا فإن فازت المنية لا يجزع لأنها ستفوز بمغامرة آخرى (هل عن ذاك من متأخر) .

الخاتمة

لقد وجدنا أن محدودية الحياة وحتمية الموت انعكست على رؤى الشعراء الجاهليين وسعيهم لتجاوز نزعة العبث والتشاؤم، وإن اختلفت رؤاهم حول اي المجالات التي تمكن الذات من تجاوز شبح الزوال، إذ ذهب قسم منهم إلى أن نهب اللذات هي الوسيلة الوحيدة التي تعطي لحياتهم معنى، ورأي قسم آخر أن ممارسة شعيرة الكرم تزيح شبح الزوال، وتمنح الذات خلوداً معنوياً في ذاكرة الأجيال اللاحقة.

أما الفروسية فكانت مجازفة تحقق للذات حياة أفضل على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، طالما أن الذات الانسانية محكمة بالموت أجازفت أم لم تجازف، علماً أن النصوص التي تناولناها هيمنت عليها روح الحجاج من أجل إضفاء مشروعية على رواهم.

ثبت المصادر والمراجع

١. إرادة القوة , فريديريك نيتشه ، ترجمة محمد ناجي, أفريقيا –الشرق ، ٢٠١١م

٢. الانسان بين الجوهر والمظهر، أريك فروم ، ترجمة : أسعد زهران ، الكويت ، ١٩٩١ م.

٣. الانهمام بالذات ، ميشيل فوكو، ترجمة: جورج أبو صالح ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، لبنان ، (د.ت.)

٤. ديوان النمر بن تولب ، ترجمة: محمد على نبيل طريفي ، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠ م.

٥. ديوان امرئ القيس ، ترجمة : محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف، مصر(د.ت).

٦. ديوان حاتم الطائي ، شرح و تقديم : أحمد رشاد، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط(١) ، ٢٠٠٢ م .

٧. ديوان ذي الإصبع العدواني ، جمع وتحقيق : عبد الوهاب محمد علي العدواني و محمد نايف الدليمي – الموصل ، مطبعة الجمهور، وزارة الإعلام – ١٩٧٣م.

٨. ديوان طرفة بن العبد ، ترجمة: محمد مهدى ناصر محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط(٣) ٢٠٠٢ م.

٩. ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك ، ترجمة : أسماء أبو بكر محمد ,دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ٢٠٠٩م.

١٠. ديوان عنترة بن شداد ، ترجمة : حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ط (٤) ,٢٠٠٤م.

١١. رؤى نقدية الشعر الجاهلي بين الشكل والمضمون, د. حسن صالح سلطان, دار نون للطباعة والشر والتوزيع ، نينوى, العراق ، ط (١) ،٢٠١٨م.

١٢. العالم إرادة وتمثلاً لشوبنهاور, آفاق الفلسفة ، مؤسسة هنداوي // pooks, http wwwhindaei.org

١٣. العبث: ألبير كامو، ترجمة: سالم نصار، منشورات دار الاتحاد، بيروت– لبنان، (د.ت).

١٤. في سيمياء شعرنا القديم دراسة نظرية وتطبيقية، د. محمد مفتاح ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب ،ط١, ١٩٨٢م.

١٥. القلق الوجودي الثمن الباهض للحرية ، جوي سالم، الاخبار / ٢٠١٨/١٠/٥ wiki ai. .wikipedia. org

١٦. كامو والتمرد: روبير دولوبيه ، ترجمة: سهيل ادريس ، منشورات دار الآداب ، بيرون ، ط (٢) , ١٩٦٤م.

١٧. لسان العرب: ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، ط٣، ١٩٩٠.
١٨. معنى الحياة والمأزق الوجودي ,استقراء نقدي لأعمال فلاسفة غربيين, مجلة الاستغرابhttps/istighrab. iicss. Iq
١٩. المفضليات : المفضل الضبي ، ترجمة : أحمد محمد شاكر ,عبد السلام هارون, دار المعارف ، مصر ، ط (٦) ، (د.ت.)
٢٠. مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف ، دار الحقائق ,الجزائر ، ط(٢) ، ١٩٨١م.

ملحمة كلكامش